بسم الله الرحمن الرحيم

قال فضيلة الشيخ الإمام محمد متولي الشعراوي: الحج هو ركنُ الختام للإسلام، واستكمال نعمة اللَّه تعالى على الإنسان؛ لأن هذا الركن يتطلب كثيراً من مُقوِّماته، يتطلب عافية البدن للقدرةِ على الحركة ومشقّة السير ومتاعب السفر، ويتطلب راحلة، ويتطلب أن يترك الحاج لكل من يعوله في بلده قُوته إلى أن يعود، فالذي يُمَكنه اللَّه من كل ذلك يكون قد أتم عليه نعمة ربوبيته؛ لأن نعمة الربوبية سبقت نعمة الألوهية، فنعمة الربوبية عطاء من اللَّه، والذي يعطيك لا يطلب منك أن تقول له: «لبيك» ولكن الذي يطلب منك هو الذي يتطلب أن تقول له: «لبيك» فالعطاء مناولة من أعلى لأدنى، ولكن طلب الألوهية هو الذي يحتاج إلى مغالبة النفس في: افعل كذا وهو لا يحب أن يفعل، ولا تفعل كذا وهو يحب أن يفعل.

اذن.. فمرحلة التكليف في إفعل ولا تفعل هي التي تتطلب أن يقول العبد فيها: «لبيك يا ربي» أي: إجابة لدعائك لي.

وأما عطاء اللَّه له في النعمة فلا يتطلب منه أن يقول: «لبيك» والمؤمن حين يهتف بشعار الحج في قوله: «لبيك اللَّهم لبيك» يلاحظ أنه يجيب اللَّه، وإجابة اللَّه إنما تتطلب أن يخرج الإنسان عن اختياره فيما يرى أنه مريحٌ له وأنه مُسعد به؛ إلى اختيار اللَّه تعالى له.

والحق سبحانه وتعالى لم يكلف بافعل ولا تفعل إلّا بعد أن أدّى عطاء ربوبية كاملة؛ خلقاً للإنسان من عدم، وإمداداً له من عدم، ومعونة له على الحركة بطاقات وأجهزة وانفعالات، وكم من منفعل له انفعل معه.

ولذلك لا يطلب اللَّه منا إلا التكليف، وقبل التكليف يظل عطاء الربوبية سائداً، كما ظل عطاء الربوبية للكافر أيضاً. فحين يقول المؤمن: «لبيك اللَّهم لبيك» أي: إجابةً بعد إجابة، لا يقول: «لبيك يا ربي» أولاً؛ وإنما يقول: «لبَّيك اللَّهم» أي لبيك فيما كلفت به وأخرجتني عن مشتهيات نفسي في افعل كذا ولا تفعل كذا. فكأن المؤمن حين يقول «لبيك اللَّهم» يُرحب بالتكليف من اللَّه، ومعنى الترحيب بالتكليف من اللَّه: أن المؤمن أصبحَتْ له شفافية، يدرك بها أن اللَّه لا يُكلّفه إلا أمراً محبباً إليه؛ لأن النعمة حين تكون من الرب نعمة متفق عليها في أنها مُسعدةٌ من

Obeikandi.com

المكلف، ولكن المُكلف قد يأخذها بمشقاتها فتصعب عليه، ولا يستطيع أن يحمل نفسه عليها، فحين يعلم أن اللَّه لم يكلفه لحاجةٍ منه إلى تكليفه وإنما يكلفه إلى أمر ينفعه؛ فذلك أيضاً من عطاء الربوبية أن يُكلَّف.

فالولد الذي يطلب من أبيه مثلاً أن يمده بأسباب خيره ونعمه ورفاهيته؛ لا يشك في أن ذلك أمر يسعده، والمُعطي وهو الأب والمعطى له وهو الابن يتفقان في ذلك، ولكن الخلاف إنما ينشأ في أوامر التكليف من الراعي، أو من الوالد، أوامر التكليف: لا تفعل كذا يا بني، لا تعبث بهذه، أدِّ واجبك، قم صلِّ، لا تصاحب أهل السوء، كل فعل يطلب منه أو فعل يكف عنه يكون فيه مشقة على النفس، فالولد الذي يدرك أن أباه يحبه ويعلم له ما ينفعه في حياته يستقبل كل تكليف وإن شقَّ عليه؛ لأنه يخرجه من اختياره، يستقبله بالحب، ويستقبله بالرضا، فكذلك حين يقول المؤمن: «لبيك اللَّهم لبيك»: إنك يا ربي إن أخرجتني إلى مشقات، وأول هذه المشقات أن أترك بيئتي، وأن أترك وطني الذي أَلِفْتُهُ وأَنِسْتُ به، وأن أترك أهلي، وأن أترك ولدي وأن أترك مالي، وأن أتحمل مشقات السفر، وأن أخرج من بِزَّةِ نفسي وهيئتها التي تصوره وتصور مقامه في مجتمعه، وأن أمتنع عن أشياء كثيرة أحلها لي اللَّه.

كل ذلك مشقات؛ فالذي يتنعم بصيد لا يصيد، والذي يتنعم بطيب لا يتطيب، والذي يتنعم بنكاح لا ينكح، والذي مهمته تقطيع الشجر أو تقليمه يمتنع تماماً عن قطع أي شجرة، أو حتى جزء منها.

إذن... أدبٌ مع الكون كله، مع جماده، ومع نباته، ومع حيوانه، وأدب مع الخلق جميعاً: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

كل تلك مشقات، هذه المشقات يستقبلها المؤمن ويقول: «لبيك اللَّهم لبيك» إجابة بعد إجابة؛ لأنني أدركت أنك لا تكلفني إلا بالخير ليعود إلي وإن كان في ظاهره مشقَّة.

والحاج حين يقول: «لبيك اللَّهم لبيك إن الحمد والنعمة لك» يشير إلى عطاءات الربوبية؛ لأنه ما دخل في استطاعة الحج إلا بإمكانيات متوفرة له، هذه الإمكانيات عاشها المؤمن إيماناً بها، حين سمع من رسول اللَّه ﷺ: «بني الإسلام على خمس»[(١)] فآمن بأن الحج ركن من أركان الإسلام، فعاش معه عقيدة وعبادة، فهو يتجه إلى ربه كل يوم خمس مرات، وقبلته ذلك البيت، فهو لا يزال عائشاً في نفسه، عائشاً في تفكيره،

(١) رواه البخاري [٨] ومسلم [١٩/١٦] والترمذي [٢٦٠٩] والنسائي [٥٠٠١] عن ابن عمر رضي اللَّه تعالى عنهما.

عائشاً على أَمَلٍ أن ييسر اللَّه تعالى فريضة الحج له ليُتِمَّ به نعمة الإيمان للَّه، وأركان الإسلام للَّه، فإذا ما دخل في باله ذلك أعدَّ نفسه إعداداً حركياً في الحياة ليفوز بهذا. والإعداد في حركة الحياة إنما يتطلب مجهود طاقة، ومجهود الطاقة مُعانٌ من اللَّه بالقوة ومعان من اللَّه بالتيسير، ويتطلب إخلاصاً في مجهود الطاقة؛ لأن الزمن الذي يتحرك فيه الإنسان يكون له عطاء على قدر زمنه، يعمل اليوم ليقوت نفسه اليوم، فحركته اليوم متسع لانتفاعه بآثار هذه الحركة في اليوم. ولكنه لا يبقى له شيء بعد ذلك لينتفع به في زمن آخر. وتكون له وحده، فإذا ما اتسعت طاقته وطموحه استطاعت أن تأتي حركة اليوم بما يكفي اليوم لذاته ويكفي اليوم لمن يعوله أيضاً.

إذن.. فذلك امتدادٌ لطاقة الحركة. فإذا ما أراد أن يَحُج لا يصنع ذلك ليُعطي حركة اليوم قوت اليوم ولا قوت من يعول، وإنما يعطيه وفرا يستطيع أن يدخره فترةً من الزمن يتسع لها الحج: شهراً أو شهرين أو ثلاثا، على حسب مقتضيات المواصلات والإقامة، فلا شكَّ أنه يُرَبِّي طاقته في العمل تربيةً تتسع ليومه وليوم من يعول وليدخر ما يستطيع أن يعينه اللَّه تعالى به لأداء فريضة الحج.

إذن.. فالمؤمن حين يستعرض مناسك الحج وأركان الإسلام يدخل على حركة العمل وفي باله الأشياء الأخرى ليعمل لها؛ لأنه لو اقتصر على الحركة ليقوت زمنه أو ليقوت زمن من يعول ولا وفر عنده فلا يستطيع أن يقوم بكل أركان الإسلام؛ فلا يستطيع أن يُزَكِّي ولكنه إن أدْخَل مثلاً الزكاة والحج في باله ضاعف من حركته، وضاعف من حركته بحيث يفعل على قدر طاعته لا على قدر حاجته؛ لأن حاجات المؤمن لا تنتهي إلفاً بأن يُتمِّم أركان إيمانه بالحج، فلا بد أن يوفر في حركة كل يوم ما يعينه على ذلك؛ ولذلك نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى حينما يريد من المؤمن أن ينفعل مع مادة الحياة ليقوت نفسه وليقوت من يعول وليقوت أيامه التي لا عمل له فيها إلا النُّسك، نلحظ ذلك في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾: [المؤمنون] قال سبحانه: ﴿هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ لم يقل: «هم للزكاة مُؤَدُّون»، وإنما ﴿هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ أي: أنه ساعة يفعل وضع في ذهنه الزكاة، وما دام يضع في ذهنه الزكاة، أي أن يعطي شيئاً من ماله لغير القادر على الحركة، عوض غير القادر بحركة منه، فيعمل وفي باله أن يُزكِّي. فيعمل عملاً مضاعفاً، يتسع له ويتسع لمن يعول ويتسع أيضاً لغير القادر.

وكذلك في الحج، يجب أن يلحظ أن حركته يجب أن تكون على قدر طاقته، وطاقته المُجْهِدة وطاقته المُلِحَّة. وإذا ما تيسرت له هذه الطاقات فتلك نعمة من اللَّه، هذه النعمة تستحقُّ أن يُحْمَدَ اللَّه عليها.

ولذلك يقول: «لبيك اللَّهم لبيك إن الحمد والنعمة لك» لأنك الذي أعنتني بالطاقة والقدرة والإمكانيات، وأمددتني بالزاد وبالراحلة وبنفقاتي مدة غيابي عن مقر حركتي، وبنفقة عيالي، فلك الحمد على ما أنعمت عليَّ بكل هذه النعم.

وهنا يلاحظ أن الشعار دقيق التركيب: «لبيك اللَّهم لبيك إن الحمد والنعمة لك» وكان السطحي في التعبير أن يقول: «إن النعمة والحمد لك» لأن الحمد لا يكون إلا على نعمة، لكن هنا قال: «الحمد» أولاً، وبعد ذلك قال: «والنعمة». لماذا؟ لأنك إن حمدت إنما تحمد على نعمةٍ سبقت، ومن تمام الحمد أن توجد نعمة أخرى، وهي نعمة أولى تحمد اللَّه عليها، ونعمة ثانية: أن يكون من تمام إنعام اللَّه عليك أن تحمده على نعمة الحمد.

إذن.. «إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك» نعمة اللَّه التي نحمده عليها بعطاء الربوبية، وبمعونته في التكليف في تعليمنا أن نحمد اللَّه سبحانه وتعالى. هذه يجب أن يلحظ المؤمن أنها مستمرة من اللَّه؛ لأن اللَّه تبارك وتعالى لم تكن عنده كمية عطاءات يعطيها لخلقه ثم تنفد؛ قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، إذن.. ما عند اللَّه تعالى لا ينفد أبداً.

وما دام المُلك باق للَّه فعطاء اللَّه للإنسان عامة والمؤمن خاصة فيما يُحمد عليه وفيما ينعم به باق، فكن أيها المؤمن واثقاً بقوله سبحانه في الحديث القدسي ما معناه: «يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرزق وخزائني ملآنة وخزائني لا تنفد أبداً»[(١)].

وقوله: «لا شريك لك» يطمئنك على أنه لا شريك للَّه ينازعه فيما يريده لك من نعمةٍ تحمد اللَّه عليها، ونعمة تعينك على إتمام المناسك التي جعلها اللَّه ركناً من أركان الإسلام.

❁ ❁ ❁

(١) روى الترمذي [٢٤٦٦] وابن ماجه [٤١٠٧] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: إن اللَّه تعالى يقول: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت يدك شغلاً ولم أسد فقرك. وصححه الألباني.

وروى مسلم [٢٥٧٧/ ٥٥] عن أبي ذرّ رضي اللَّه تعالى عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن اللَّه تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا...» الحديث. وفيه: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر...».

obeikandi.com